

زكاة العلم

◀ تأملات في العطاء العلمي والثقافي للشيخ جعفر أبي المكارم

ح أطراف للنشر والتوزيع، ١٤٣٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصفار، حسن موسى

زكاة العلم: تأملات في العطاء العلمي والثقافي للشيخ جعفر

أبي المكارم. / حسن موسى الصفار - القطيف ١٤٣٥ هـ

٤٠ ص، ...سم

ردمك: ١-٢-٩٠٦٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- أبي المكارم، جعفر ٢- العلماء السعوديون ٣- الإسلام

تراجم أ. العنوان

١٤٣٥/٩٤٢٥

ديوي ١، ٩٢٢

رقم الإيداع ١٤٣٥/٩٤٢٥

ردمك: ١-٢-٩٠٦٠٣-٦٠٣-٩٧٨

مُحْفَوظٌ
جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

القطيف - المملكة العربية السعودية

حسن بن موسى الصفار

زكاة العلم

تأملات في العطاء العلمي والثقافي للشيخ جعفر أبي المكارم

(١٢٨١-١٣٤٢هـ)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ
أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

[سورة الأحزاب، الآية: ٣٩]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين

إحياء ذكر العلماء مظهر من مظاهر الإكرام والتقدير لهم، وإعلاء لقيمة العلم ومكانته في النفوس، كما أن قراءة تاريخهم وسيرهم يحفز للاقتداء بهم في نشاطهم العلمي، ومناقبياتهم الأخلاقية، وتحملهم للمسؤولية تجاه الدين والمجتمع.

وهذه الصفحات المتواضعة تحكي جانباً من سيرة فقيه خدم العلم والمجتمع عبر التدريس والخطابة والكتابة والتصدي للشأن الديني والاجتماعي، وهو العلامة الفقيه الشيخ جعفر أبو المكارم (١٢٨١ - ١٣٤٢هـ) وقد كتبت هذه الصفحات بتاريخ ٣/٣/١٤٢١هـ استجابة لطلب حفيده الأستاذ الخطيب الشيخ

سعيد الشيخ علي الشيخ جعفر أبو المكارم حفظه الله لضمها
لكتاب تفصيلي ألفه عن حياة جده رضوان الله تعالى عليه.

وقامت مجلة الواحة بنشر هذه الصفحات في عددها رقم ١٩
الصادر في الربع الأخير من العام ٢٠٠٠م.

وقد أبدى أخونا الكريم الصديق الوفي الحاج عبد القادر
الشيخ علي الشيخ جعفر أبو المكارم حفظه الله، وهو حفيد
المترجم له أيضاً، رغبته بتبني طباعة هذه الصفحات ضمن كتيب
مستقل، وبفضل متابعته لانجاز الموضوع، شقّ هذا الكتيب طريقه
إلى أيدي القراء الكرام، فله وافر الشكر والامتنان.

حسن الصفار

٢٣ شعبان ١٤٣٥ هـ

٢١ يونيو ٢٠١٤ م

مدخل

الزكاة لغة: النمو والزيادة. يقال: زكا الزرع: إذا نما وزاد، وزكت النفقة: إذا بورك فيها. وقد تطلق بمعنى الطهارة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١) أي طهرها عن الأدناس. ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٢). جاء في لسان العرب: «وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة، وفي حديث الباقر عليه السلام أنه قال: «زكاة الأرض يُسها، يريد طهارتها من النجاسة كالبول وأشباهه بأن يجفّ ويذهب أثره»^(٣).

ومن فلسفة الزكاة في التشريع الإسلامي يظهر أن المعنيين قد أخذوا فيها بعين الاعتبار، فإتاء زكاة المال يطهر نفس الإنسان من

(١) سورة الشمس، الآية ٩.

(٢) سورة الأعلى، الآية ١٤.

(٣) لسان العرب، ج ٣، ص ٣٦.

الأنانية والبخل والحرص، لشعور الإنسان بأن المال الذي يحصل عليه ملك له وحده، وتحت سيطرته وتصرفه هو فقط، وإعطاؤه للزكاة تشذيب وتعديل لهذه المشاعر والأحاسيس، لذلك يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(١).

في الوقت ذاته فإن إخراج الزكاة ينمي المال ويزيده، ببركة الله وفضله، وحتى وفق المنظور الاجتماعي والاقتصادي فإن رعاية الفقراء يوفّر الأمن الاجتماعي، حيث يمنع من تشكّل حالات الإجرام والعدوان الناتجة من الفقر والحرمان، كما أن تدوير الثروة في المجتمع، يحرك الوضع الاقتصادي، ومردوده سيكون على أصحاب رؤوس الأموال أيضًا. من هنا نرى الدول الكبرى في العالم تقدم شيئاً من الدعم والمساعدة للدول الفقيرة المتخلفة، التي إذا تحرك اقتصادها فستستهلك من إنتاج تلك الدول المتقدمة.

والنصوص الدينية تشير إلى دور الزكاة والصدقة في تنمية المال والثروة كما ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا أردت أن يثري الله مالك فزكه»^(٢)، وقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «الزكاة تزيد في الرزق»^(٣).

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٣.

(٣) المصدر نفسه. ص ١٤.

لكل شيء زكاة

ليس امتلاك الإنسان للثروة فقط هو الذي يشعره بالأنانية والبخل، بل إن كل إمكانية يتوفر عليها الإنسان تسبب له هذا الشعور، وتشيعه في نفسه وسلوكه، لذلك فهو في حاجة لترشيد مشاعره وتصرفاته تجاه كل ما يتحصّل عليه من إمكانات ومكاسب في هذه الحياة، ليتجه لتوظيفها في خدمة المصلحة العامة.

من هنا تشير النصوص الدينية إلى أن لكل شيء زكاة، فكما يجب على الإنسان أن يعطي حصة من ماله - حسب الضوابط الشرعية - لصالح الفقراء والخدمات العامة، فإن عليه أن يوظف شيئاً من قدراته وإمكاناته المختلفة لصالح الشأن العام وخدمة أبناء جنسه ومجتمعه. يقول الإمام علي عليه السلام: «لكل شيء زكاة»^(١).
وورد مثله عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام^(٢).

والعلم والمعرفة من أكبر الإمكانيات وأهم المكاسب، وإذا ما توفّر إنسان على مستوى وقدر من العلم، فقد يأخذه الغرور والتعالي على من حوله، وتسيطر عليه الأنانية فيحتكر العلم والمعرفة لنفسه، ويبخل بها على الآخرين، إلا في حدود خدمة ذاته ومصالحه. لذا جاءت التعاليم الدينية تؤكد على مسؤولية

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. حرف اللام.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٤٧.

العالم تجاه الناس، وتوجب عليه بذل علمه للمحتاجين إليه والمتفيعين به.

وبذل العلم هي زكاته. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه»^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام: «زكاة العلم بذله لمستحقه»^(٢).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لكل شيء زكاة وزكاة العلم أن يعلمه أهله»^(٣).

إن بذل العلم للناس يزكي نفس العالم ويطهرها من الأنانية والبخل، ويؤكد لديه الشعور بالمسؤولية، فالعلم ليس تشریفاً فقط وإنما هو مسؤولية وتكليف.

من ناحية أخرى، فإن بذل العلم يزيده وينميّه، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «والعلم يزكو على الإنفاق»^(٤) أي يزيد وينمو.

ذلك أن إبداء المعلومات يرسخها في ذاكرة الإنسان، والفكرة أو المعلومة التي تطرحها عدة مرات تصبح أكثر حضوراً في ذهنك، وأبعد عن الغفلة والنسيان.

(١) بحار الأنوار. ج ٢، ص ٢٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. حرف الزاء.

(٣) بحار الأنوار. ج ٢، ص ٢٥.

(٤) نهج البلاغة.

وطرح الأفكار والآراء أمام الآخرين يعطي الفرصة والمجال لتمحيصها ونقدها ومناقشتها، فقد ينطوي الإنسان على نظرية ما معتقداً صحتها وصلاحها، فإذا ما طرحها للتداول العلمي والفكري بين الناس، فإنها قد تثير شيئاً من التساؤل والأخذ والرد، يدعو صاحبها لإعادة النظر فيها، بمعالجة الثغرات ونقاط الضعف في النظرية، مما يعمقها ويقويها، أو بالتراجع عنها إذا انكشف له بطلانها، وذلك مكسب مهم وفائدة كبيرة، لا تحصل بانطواء العالم على علمه، وإنما يبذل العلم ونشره.

من ناحية أخرى، فإن بذل العلم ينشط الحركة الفكرية والعلمية في المجتمع، وذلك من صالح العالم نفسه، حيث إن انتماء لمجتمع حيوي له حركة معرفية، يزيد في نشاطه العلمي، ويدفعه أكثر للتفاعل والتقدم.

لكل ذلك يكون بذل العلم زكاة له، أي سبباً لنمائه وبركته.



بذل العلم

إنما يتوجه الإنسان لدراسة العلوم الدينية، والمعارف الشرعية، من أجل أن يمتلك هو البصيرة في دينه أولاً، ويعرف التكليف الموجهة إليه، ولكي يقوم بهداية الآخرين وإرشادهم ثانياً، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾^(١).

والمهمة الثانية تترتب بشكل طبيعي وقهري على إنجاز المهمة الأولى، فإذا ما علم الإنسان وفقهه، فإنه يتحمل مسؤولية تعليم الآخرين وتفقيهمهم، وإن لم يكن يستهدف ذلك منذ البداية.

بالطبع هنالك نصوص تتحدث عن المسؤولية تجاه العلم بشكل مطلق، أي كل علم يحتاج إليه الناس، ويستفيدون منه، في أمور

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

دينهم أو دنياهم. روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «من أوجب حقَّ أخيك أن لا تكتمه شيئاً ينفعه لا من دنياه ولا من آخرته»^(١).

وجاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاث من حقائق الإيمان... وبذل العلم للمتعلم»^(٢).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: «مما علمناهم يبثون»^(٣).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر»^(٤).

ويقول الإمام علي عليه السلام: «ما أخذ الله على اهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العم أن يعلموا»^(٥)، وفي كلمة أخرى يقول عليه السلام: «شكر العالم على علمه أن يبذله لمن يستحقه».

وبذل العلم له عدة قنوات ووسائل من أبرزها: التدريس والتأليف والخطابة.

(١) محمد رضا ومحمد وعلي الحكيمي. الحياة ج ٢، الطبعة السادسة ١٤١٠هـ، بيروت: الدار الإسلامية)، ص ٣٣٨.

(٢) بحار الأنوار. ج ٢، ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٤) بحار الأنوار، ص ١٧.

(٥) نهج البلاغة.

وأمامنا الآن حياة الفقيه الشيخ جعفر أبي المكارم (١٢٨١ - ١٣٤٢هـ) وهو علم بارز من أعلام القطيف والبحرين، انحدر من أسرة علمية عريقة توارثت العلم والفضيلة لأكثر من قرنين من الزمن - ضمن التاريخ المعروف -، وانتهل المعرفة والأدب منذ نعومة أظفاره، على يد والده وأعلام أسرته، ثم هاجر في مقتبل شبابه وهو في سن الرابعة عشر من عمره، الى الحوزة العلمية في النجف، حيث عكف على الدراسة والعلم لثمانية عشر سنة، وعاد الى بلاده ليؤدي دور العالم الملتزم، والفقيه المسؤول، وكانت حياته عامرة بالعطاء العلمي، والنشاط الاجتماعي، كأنموذج للعالم الصادق، الذي يبذل علمه، ويؤدي زكاة معرفته.

وفي هذه السطور المتواضعة نسلط الأضواء على جانب عطائه العلمي والثقافي ضمن مجالات التدريس والتأليف والإرشاد الاجتماعي العام.

هذه المجالات الثلاثة، التي سلكها العلماء، لنشر علمهم وبثه وبذله في المجتمعات البشرية.



التدريس والتعليم

هو الطريق لتوارث العلم بين الأجيال، وانتقال الخبرات والمعارف، حيث يلتزم العالم مجموعة من الراغبين في العلم، ويواظب على تدريسهم وتعليمهم، ضمن منهج وبرنامج محدّد، يختلف من عصر إلى آخر.

والتدريس التزام يأخذ من جهد العالم ووقته، وهو من أبرز مصاديق بذل العلم، وأظهر تجلّيات القيام بمسئوليته. لذلك يحذّر الإمام جعفر الصادق عليه السلام من التهاون في أداء هذا الواجب حيث يقول فيما روي عنه: «إن من العلماء من يحبّ أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأول من النار»^(١).

وقد اهتم علماؤنا الأخيار بهذا الجانب اهتماماً كبيراً، فجعلوا

(١) بحار الأنوار. ج ٢، ص ١٠٨.

التدريس في مقدمة برامجهم، ومن أولويات حياتهم، وربما يقضي بعضهم أكثر عمره ووقته في تدريس الطلاب، وبعض العلماء تخرج على يديه المئات من العلماء والفضلاء. كشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) والذي تخرج على يديه عدد كثير من الفقهاء والمجتهدين، ومن العلماء المفسرين والمتكلمين، وفضلاء تلامذته الذين كانوا مجتهدين يزيدون على ثلاثمائة فاضل من الخاصة، - الشيعة - ومن العامة - أهل السنة - ما لا يحصى^(١).

والمحقق الشيخ محمد كاظم الخراساني (١٢٥٥ - ١٣٢٩ هـ) والذي كان عدد طلاب درسه في آخر دورة دراسية علمية يزيد على ١٢٠٠ طالباً^(٢)، فضلاً عن طلاب دوراته السابقة، ويقول عنه السيد محسن الأمين: كان مجتهداً لا يفارق التدريس في حال^(٣) حتى حكى أحد تلامذته أنه حصل في أحد الأيام مطر شديد في النجف، وكان الشارع موحلاً، فتوقعت أن الأستاذ الشيخ الخراساني لا يخرج إلى الدرس، ولكنه لم يترك درسه. ويتحدث المرجع الديني السيد محمد الشيرازي عن مواظبة العلماء على التدريس والتعليم حتى في أشد الأوقات وأحلك الظروف قائلاً: إن مما يتناقل بين

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. معجم رجال الحديث، ج ١٥، ص ٢٤٧.

(٢) آغا بزرك الطهراني. الذريعة، ج ٤، ص ٣٦٧.

(٣) السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، ج ٩، طبعة ١٤٠٦ هـ، (بيروت: دار التعارف)،

العلماء والطلبة: أن إمام الجماعة إذا لم يأت فاذهبوا الى عيادته، فإنه لا يتأخر عن صلاة الجماعة إلا المرض، أما المدرس إذا لم يأت فخذوا النعش إلى بيته، فإنه لو كان حياً لما تأخر عن درسه.

وفي هذا العصر ضرب المرجع الراحل السيد أبو القاسم الخوئي (١٣١٧ - ١٤١٣ هـ) رقماً قياسيًّا في مزاولة التدريس وتربية الطلاب والعلماء حتى تخرج على يديه المئات من الفضلاء على مدى خمسة وسبعين عاماً.

وما نودّ الإشارة إليه ضرورة اتساع نطاق تدريس العلوم الدينية، لغير طلاب العلم المتفرغين، ففي مجتمعاتنا شريحة من المثقفين والمهتمين بالقضايا الفكرية والاجتماعية، لكن معرفتهم بالعلوم الدينية محدودة، وكأنها حكر على أبناء الحوزات العلمية، وهذا من أسباب الانفصال بين المثقفين وعلماء الدين، فينبغي أن يفتح المجال، وأن يتصدّى العلماء والفضلاء، لتشكيل الدروس في التفسير والعقائد والفقه والأصول وغيرها، لهذه المجاميع من الشباب ولو في بعض أيام الأسبوع، لتصبح لدينا طبقة مثقفة مستوعبة لمبادئ الإسلام ومفاهيمه وتشريعاته.

وعلى نهج العلماء المخلصين، الذين يرون أنفسهم حلقة في سلسلة العلم الخالدة، يأخذونه ممن قبلهم ويضفون عليه تطويرهم وابتكاراتهم، ثم يوصلونه الى من بعدهم، على هذا النهج

سار الشيخ جعفر أبو المكارم، حيث أهتم بعد نياله مرتبة عالية من العلم والمعرفة، بتربية الطلاب الفضلاء، وتدريسهم علوم الشريعة الغراء.

ويظهر مما ذكره الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني عند ترجمته للشيخ جعفر أبي المكارم في (معجم رجال الفكر والأدب في النجف) أنه مارس التدريس ضمن مستوى البحث الخارج، لعدة سنين في النجف الأشرف، وقبل أن يعود الى وطنه، حيث قال ما نصه: «وبلغ مرتبة عالية من الاجتهاد والمعرفة، واستقل بالتدريس والبحث. وبعد سنين انتقل إلى مسقط رأسه»^(١).

وبعد عودته من النجف واستقراره في بلده، ورغم انشغاله بالمهام الدينية والاجتماعية، إلا أنه واصل مسار التدريس والتعليم، ومع أن مترجميه لم يذكروا في قائمة تلامذته أكثر من عشرة أسماء، إلا أن ما يبدو من قرائن، يشير الى أن الناهلين من علمه، والمتلمذين على يديه، أكثر من هذا العدد، لكن لم يحصل بحث وتتبع شامل. فاستقلاله بالتدريس والبحث لسنين في النجف، وهمته العالية، ونشاطه المتميز وقدرته البيانية، كل ذلك يدعو الى سعة رقعة طلابه وتلامذته.

ويلحظ ضمن تلامذته المذكورين في كتب التراجم، وجود

(١) محمد هادي الأميني. معجم رجال الفكر والأدب في النجف، ج ١، ص ٢٠٩.

أعلام فضلاء، كالعلامة النسابة السيد مهدي بن السيد علي
 الغريفي (١٣٠٠ - ١٤٣٣)، والعلامة الشيخ خلف بن الشيخ
 أحمد العصفور (١٢٨٥ - ١٣٥٥هـ)، القاضي الشرعي العام في
 البحرين، وولده العلامة الشيخ علي الشيخ جعفر أبو المكارم
 (١٣١٣ - ١٣٦٤هـ) والعالم الفاضل الشيخ محمد بن سلمان
 الستري (توفي ١٣٣٩هـ) وغيرهم.



الكتابة والتأليف

لأن الإسلام مشروع حضارة، ودين علم ومعرفة، فقد أولى وسائل العلم وأدوات الثقافة، كل اهتمام ورعاية، لذا أشاد القرآن الكريم بالقلم والكتابة، وجعله عنواناً لسورة من سورته، وهي سورة القلم التي أقسم الله تعالى في مطلعها بالقلم والكتابة ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. كما أن أول آيات القرآن نزولاً على رسول الله ﷺ كانت دعوة إلى القراءة، وتذكيراً بنعمة القلم ودوره في تعليم الإنسان، كأعظم نعمة على الإنسان بعد نعمة خلقه وإيجاده. يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١).

والقلم كأى نعمة أخرى تحتاج إلى استثمار وتوظيف، إن

(١) سورة العلق، الآيات ١-٥.

الكثيرين ممن يمتلكون القابلية والاستعداد للكتابة والتأليف، قد لا يترجمون تلك القوة فعلاً في حياتهم، فلا يشهرون القلم سلاحاً في الدفاع عن مبادئهم، ووسيلة لحفظ أفكارهم وتجاربهم، ونقلها إلى الآخرين.

مع أن الإسلام في تعاليمه يؤكد على كل من أوتي نصيباً من العلم، أن يحفظه بالكتابة لنفسه وللأجيال القادمة. فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قيدوا العلم بالكتاب»^(١). وعنه ﷺ أنه قال: قيدوا العلم. قيل: وما تقييده؟ قال ﷺ: (كتابته)^(٢)، وعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»^(٣).

وكان ﷺ يشجع أصحابه وأبناء أمته على كتابة العلم بشكل عام والمعارف الدينية بشكل خاص، كقوله ﷺ: «من كتب عني علماً أو حديثاً لم يزل يكتب له الأجر ما بقي ذلك العلم والحديث»^(٤).

وروي عنه ﷺ: «المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة ستراً فيما بينه وبين النار»^(٥).

(١) كنز العمال. ج ١٠ ص ٢٤٩، حديث ٢٩٣٣٢.

(٢) بحار الأنوار. ج ٢، ص ١٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٤) كنز العمال. ج ١٠، ص ١٨٣، حديث ٢٨٩٥١.

(٥) بحار الأنوار. ج ١، ص ١٩٨.

ولا أكثر من أن يعتبر رسول الله ﷺ دور الكتابة والتأليف أهم وأرجح من دور القتال في سبيل الله حتى الشهادة، حيث ورد عنه ﷺ أنه قال: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»^(١).

انطلاقاً من هذه التوجيهات الإسلامية العظيمة، وإدراكاً لأهمية دور القلم في بث العلم ونشر المعرفة، بادر علماءنا الأخيار لتحمل مسؤولياتهم المبدئية في هذا المجال، وأثروا حركة الفكر البشري بإنتاجهم العلمي الغزير، في مختلف مجالات المعرفة والحياة.

ورغم أن بعضهم كان يعيش ظروفاً بالغة القسوة، وكانت تواجهه الصعوبات والعقبات، إلا أن الهمة العالية، وروح التضحية والعطاء، وأخلاقية المثابرة والاجتهاد، كل ذلك كان حافزاً لتجاوز التحديات والمعوقات.

فالكتابة والتأليف يجب أن تكون جزءاً من برنامج حياة العالم إلى جانب سائر مهامه والتزاماته، ولا ينبغي الاعتذار بالانشغالات المختلفة عن هذه المهمة الحساسة.

وفي سير علمائنا الأخيار ما يدعو إلى التأسى والافتداء فالعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٢٨ - ١١١٠ هـ) صاحب بحار الأنوار كان شيخ الإسلام من قبل السلاطين في اصفهان،

(١) ميزان الحكمة ج ٦، ص ٤٥٧.

وكان يباشر جميع المرافعات بنفسه، ولا تفوته صلاة الأموات والجماعات والضيافات والعبادات، وبلغ من كثرة ضيافته أن رجلاً كان يكتب أسماء من أضافه.. وكان له شوق شديد الى التدريس وخرج من مجلس درسه جماعة كثيرة من الفضلاء بلغوا ألف نفس، وكان يباشر أمور معاشه وحوادث دنياه بغاية الضبط، ومع ذلك بلغت مؤلفاته ما بلغت.. حتى لا تكاد تجد آية ولا خبراً في الأصول والفروع وغيرها إلا وفيه بيان وتوضيح، سوى ما اختص بالتحقيق والتهديب.. ويقال: أن تصانيفه تبلغ ألف ألف - مليون - وأربعمائة ألف وألفان وسبعمائة بيتاً، والبيت في اصطلاح الكتاب عبارة عن خمسين حرفاً^(١).

وجاء في حياة الشيخ محمد حسن النجفي (توفي ١٢٦٦هـ) صاحب الموسوعة الفقهية المعروفة جواهر الكلام أنه كان يقول: عندما كنت أكتب الفقه عاهدت عهداً أن أكتب كل يوم كراساً والكراس عبارة عن جزوة^(٢) وحدث أن توفي أحد أولاده في ريعان شبابه فجلس أمام جنازته يبكي ويواصل كتاب كراسه لذلك اليوم.

وهذا ما نلاحظه في حياة الشيخ جعفر أبي المكارم، والذي عاش ظروفاً تعصف بها الأخطار الأمنية، والتقلبات السياسية،

(١) أعيان الشيعة. ج٩، ص ١٨٢ - ١٨٤.

(٢) الميرزا محمد بن سليمان التنكابني. قصص العلماء، ص ١١٧.

والمشاكل الاجتماعية، وكان يتردد بين البحرين والقطيف، ويتحمل أعباء الزعامة في مجتمعه، وتعرضه عقبات وعراقيل المخالفين والمناوئين.. ولكنه ومع كل ذلك قدم لعالم المعرفة والأدب مجموعة قيمة من المصنفات والمؤلفات.

ويشير رحمه الله الى ما كان يواجهه من ظروف صعبة، لم تخضع لها همته، بل تحداها بعزيمة راسخة، يشير الى ذلك في نهاية أحد كتبه (درة الصدف) قائلاً: «هذا ما سنح على تشتت البال، واضطراب الأحوال، بكثرة عروض الانشغال، وتصادم الأهوال.. باليوم السادي من ذي الحجة أحد شهور سنة ١٣٣٢ هـ وهو إذ ذاك في البحرين على خوف ووجل والحمد لله رب العالمين..».

وحينما نستعرض عناوين مؤلفاته وبعض أبحاثه فإننا نلاحظ ما يلي:

أولاً: ما منحه الله تعالى من التوفيق بكثرة المؤلفات، قياساً الى المحيط الذي كان يعيش فيه، ومقارنة بعلماء آخرين عاصروا زمانه وظروفه، وعرفوا بالعلم والفضيلة، لكن أغلبهم إما لم يقتحم عالم الكتابة والتأليف، أو كان انتاجه قليلاً لا يتعدى الكتابين أو الثلاثة، بينما رشح عن قلم الشيخ أبي المكارم ما يزيد على الخمسين كتاباً وهذا ما لفت نظر الدكتور الأميني حيث وصفه بقوله:

«مجتهد فاضل، عالم كامل، متتبع مؤلف، كثير البحث والتصنيف»^(١).

ثانياً: نلاحظ التنوع في المواضيع التي تناولتها مؤلفاته، من فقه وأصول ومنطق وعقائد وتاريخ وأدب، مما يدل على سعة أفقه وموسوعية معارفه.

ثالثاً: يجد الباحث في ما طبع من مؤلفاته أنه يتحلى بروح موضوعية في معالجة المسائل العلمية، حيث يتتبع الآراء، ويقارن بينها بإنصاف، ويحاكمها بهدوء واتزان.

رابعاً: الاستجابة للتحديات الفكرية والثقافية في عصره وبيئته، فالعديد من البحوث كتبها إجابة على أسئلة قدمت إليه، كتحفة السائل، وجذوة الحق، وجوابات المسائل المحمرية، ومنح القادر. أو لمناقشة قضايا مطروحة في المجتمع بشكل عام، أو في الوسط العلمي بشكل خاص، كإغاثة الغريق، وتمهيد البرهان، وجمانة البحرين، وقامعة الفساد بعلم الرشاد، ومنار الحق.

خامساً: الروح الوجدانية والتي يؤكد لها في العديد من مؤلفاته على نطاق الأمة، وفي إطار المذهب في وقت اشتدت فيه الحملات الطائفية، التي كانت ترمي

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف. ج ١، ص ٢٠٨.

أتباع أهل البيت عليهم السلام، بأفزع التهم، وتصطنع الحواجز بينهم وبين بقية المسلمين، فقد كتب موضعاً حقيقة مذهب أهل البيت، والأدلة التي قام عليها من الكتاب والسنة، وناقش بعض قضايا الخلاف، بروح علمية منطقية ويتجلى ذلك في كتابه (درة الصف) و (مشكاة الأنوار).

من ناحية أخرى فإن تعدد المدارس الفكرية والاجتهادية ضمن مذهب أهل البيت عليهم السلام، كان ينتج بعض التشنجات والصراعات، حيث يندفع بعض المتحمسين الى مهاجمة المخالفين له في الرأي، بطريقة سيئة، تمزق الصف، وتوجد الاضطراب والنزاع. وكان موقف الشيخ أبي المكارم في بعض بحوثه ومؤلفاته، منصباً على مواجهة هذا التطرف والتشنج، كما يظهر ذلك في كتابه (نقد بوار الغالين).

هذه بعض ميزات الثروة العلمية والثقافية التي تركها الشيخ جعفر أبو المكارم، والتي نرجو أن يتحقق الأمل، بإخراجها إلى عالم الطباعة والنشر، لتأخذ موقعها المناسب في مكتبة المعرفة الإنسانية.

وفي هذا العصر والبشرية تعيش ثورة المعلومات والمواصلات، والعولمة الثقافية والإعلامية، فإن الأمة الإسلامية تواجه تحديات

كبيرة في الحفاظ على هويتها، والتمسك بأصالتها، ومواكبة تطورات الحياة، ومعرفة الرؤية الدينية تجاه المشاكل الاجتماعية المعقدة، مما يستلزم حركة علمية وثقافية جادة واسعة.

وإذا كان العلماء السابقون قد كتبوا عن القضايا والمسائل المطروحة والمثارة في عصورهم، فإن علماءنا اليوم مطالبون بالتوجه لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة.

ولا شك أن أجواء البحث والكتابة، وظروف التأليف والنشر، أصبحت الآن أكثر تهيؤًا وتوفرًا من الأزمان الماضية، مما يعني أن يكون العطاء الفكري، والإنتاج العلمي، أغزر وأوسع لعلماء ومفكري هذه العصور.



الخطابة

وإذا كان التدريس والتأليف متوجهًا للنخبة ولفئة محدودة من المجتمع، فإن الخطابة هي جسر تواصل العالم مع الجمهور وعامة الناس، وكما كان الأنبياء والرسل يبلغون دعوة الله تعالى للناس كافة، فإن علماء الدين وهم ورثة الأنبياء وحملة رسالتهم، لا بد وأن يتخاطبوا مع جميع الناس، ولقد فرض الإسلام خطاب الجمهور كجزء من الصلاة في صلاة الجمعة والعيدين.

وخطاب الجمهور يقتضي البساطة والوضوح، فهو ليس كالدرس أو الكتابة، ضمن مستوى معيّن، وبمصطلحات علمية خاصة. لقد كان رسول الله ﷺ وهو أعلم البشر يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، يخاطب كلاً منهم بما يفهمون، ويحدثهم بما يعلمون، ولذلك

قال ﷺ: «أمرتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»^(١).

وروى أبو داود في سننه حديث رقم ٤٨٣٩ أن كلام رسول الله ﷺ كان فصلاً يفهمه كل من سمعه^(٢).

وورد أنه ﷺ كان يخطب في وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصالحتهم، وكان يقصر خطبته أحياناً بحسب حاجة الناس. وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراجعة^(٣)

ومن الخطأ ما يشيع في بعض الأوساط العلمية من تنافي دور الخطابة الجماهيرية مع المقام العلمي الرفيع، وأن الخطابة عمل احترافي تقوم به فئة متفرغة له من ذوي المستوى العلمي المحدود، أما كبار العلماء فلا يناسب ذلك مقامهم وشأنهم!! وقد تحدث الشهيد السيد مهدي الحكيم في مذكراته أنه لما بدأ إلقاء المحاضرات الجماهيرية، جاء بعض العلماء إلى والده المرجع السيد الحكيم لينصحه بترك ذلك، لأنه لا يليق بشأنه ومكانته!!

إن في تاريخنا علماء فطاحل مارسوا الوعظ والإرشاد الجماهيري فكان لذلك أعظم الأثر في مجتمعاتهم كالمحقق الشيخ جعفر الشوشتری توفي ١٣٠٣ هـ الذي يقول عنه السيد

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي. سبل الهدى والرشاد ج٢، ص ٩٤.

(٢) المصدر نفسه. ج٧، ص ١٢٩.

(٣) المصدر نفسه. ج٨، ص ٢٢٢.

الأمين: كان عالمًا من أعلام العلماء فقيهاً واعظاً، له شهرة واسعة، واشتهر بالوعظ والخطابة، وكانت تجتمع الألوف تحت منبره لسماع مواعظه.. رجع إلى بلده تستر في إيران رئيساً مطاعاً مرجعاً في التقليد والأحكام، وأخذ في الوعظ في شهر رمضان وغيره، ونبغ في ذلك بحيث لم يعهد له نظير، وترتب على وجوده آثار جليلة.. وحصل من وعظه هداية كثير من الناس^(١).

وفي منطقة القطيف تميز الشيخ جعفر أبو المكارم كفقيه في عصره، بممارسة دور الخطابة للجمهور، فهو كان يرى وجوب إقامة صلاة الجمعة، وهي تستلزم إلقاء خطبتين من الإمام قبل الصلاة، وكان يقيمها في أي بلد تيسر له - على حد تعبير الشيخ إبراهيم المبارك في ترجمته له في ماضي البحرين وحاضرها - ، فحينما يكون في البحرين يقيمها هناك في سترة أو غيرها، كما واظب على إقامتها في القطيف.

والرأي السائد عند علماء القطيف عدم إقامة صلاة الجمعة إما لحرمة إقامتها زمن الغيبة كما هو رأي الشيخ إبراهيم القطيفي (توفي ٩٤٠هـ) من المتقدمين، ورأي الشيخ علي - أبو الحسن - الخنيزي (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ) من المتأخرين. أو لعدم وجوبها لفقدان بعض شرائطها كما هو رأي الكثير من الفقهاء.

(١) أعيان الشيعة ج ٤، ص ٩٥.

وبذلك حرم المجتمع القطيفي ولا يزال من الفوائد والمنافع الكبيرة التي تحققها إقامة صلاة الجمعة، مع أنها أصبحت تقام الآن في العديد من البلدان والمناطق الشيعية كإيران ولبنان وسوريا ومناطق أخرى.

أقام الشيخ جعفر أبو المكارم صلاة الجمعة في العوامية بعد أن آب إليها من النجف الأشرف، وواجه بالطبع معارضة يبدو أنها كانت شديدة، ذلك لأنها عمل لم يكن مألوفاً في المجتمع، ولأن بقية العلماء لا يرونها، وهنا تختلط الأوراق، بين اختلاف الرأي، والذي هو أمر مشروع، ومن حق كل فقيه أن يبين رأيه، وبين تحوّل المسألة الى نزاع وخلاف شخصي واجتماعي، قد يغذيه التحاسد، والتنافس على الزعامة والمكانة، وتعبئة الجمهور بطريقة سيئة من قبل هذا الطرف أو ذاك..

لكن الشيخ جعفر واجه ذلك الموقف بحزم فيه لين، وأصر على تنفيذ ما يراه حكماً شرعياً، متحملاً للإهانات والإساءات، كما يظهر من كلام الشيخ إبراهيم المبارك عنه حيث يقول: وكان لشدة جسارته، وقوة عارضته، أقام الجمعة في القطيف على كثرة المعارضين له، وقوة المنحرفين عن رأيه في الجمعة، فسار قدماً لم يتعثر ولم يتلكأ، ولو كان غيره لرجع القهقري. وعلق على هذا القول الأستاذ محمد أمين أبو المكارم بقوله: ولا يزال على قيد

الحياة من الرجال المسنين الذين أدركوا وصلوا معه الجمعة، وقد وصف بعضهم تصرفات صبيانية كان يمارسها البعض، كالقاء النجاسة على المصلين لإجبارهم على ترك الصلاة، والتي كان يقيمها الشيخ في الساحة الشهيرة في العوامية والتي يطلق عليها (كربلاء) كما كمان يقيم فيها الأعياد والآيات والاستسقاء^(١).

فكانت صلاة الجمعة موعداً أسبوعياً لخطاب جماهيري يلقيه سماحته على المجتمع، وقد جمع ولده الشيخ علي مجموعة من خطب الجمععات والأعياد، وعنونها بـ (الموعظة الجعفرية).

على أن الأمر الذي استوقفني في حياته أكثر، ممارسته الخطابة المنبرية الحسينية في المآتم، وذلك غير متداول بين الفقهاء في المجتمعات الشيعية العربية، وإن كان يحدث من قبل بعض الفقهاء في إيران، أما الحوزة العلمية النجفية وامتداداتها، فكان هناك فرز بين الخطباء المنبريين، والعلماء الفقهاء، وكان ينظر الى الخطابة كممارسة لا تليق بمقام العالم، ولا ينبغي أن ينشغل بها - كما سبقت الإشارة - . ولابتعاد العلماء الفضلاء عن ارتقاء المنابر، أصبح الشاغلون لهذا الدور - غالباً - من محدودي المستوى العلمي والثقافي، وفي بعض الأحيان ممن لا يمتلكون أي مستوى، مما جعل توجيه الجمهور وخاصة في المناسبات الحاشدة المؤثرة

(١) محمد أمين أبو المكارم. مخطوطات الواحة: دعوة الحق إلى صلاة الجمعة، عدد (٦) ربيع الثاني ١٤١٧هـ، ص ١٨٣.

كعاشوراء يأتي من قبل مستويات غير متمكنة من إسداء التوجيه السليم، واستثمار هذه المناسبات الهامة.

وإدراكاً من الشيخ أبي المكارم لهذه الحقيقة، فقد تصدى بنفسه للقيام بهذا الدور الهام، فكان يرتقي المنبر في مناسبات ذكريات أهل البيت عليهم السلام كعاشوراء وأيام الوفيات، ويوظف خطابته في بث المسائل الشرعية، والطرح السليم لحياة أهل البيت وسيرتهم، مع رثائهم وذكر مصائبهم، وقد استغل بعض أبناء الصنف ذلك للانتقاص من مقامه ومكانته العلمية، لكن إخلاصه وشجاعته سمت به عن التأثير بتلك الضغوط والإساءات.

وقد تحدث رحمه الله عن موقفه هذا بقوله: «ونسبوا لقصور عقولهم، وكثافة نفوسهم من يقوم في ماتم آل الرسول عليه السلام من أهل العلم، مسمعاً شيعتهم شطراً مما لاقوه من تلك المصيبات، إلى النقص، وأكدوا ذلك في المجتهد، وحكموا بعدم مناسبة ذلك له، في زمان الأزمنة وساعة من الساعات، معللين أن ذلك يكون على علمه من أعظم الأوباء، وأعظم الآفات...»^(١).

ويدافع السيد مهدي الغريفي عن رأي وموقف أستاذه الشيخ جعفر، حيث كتب ما يلي: «ومن العجب أن هذا الرجل على ابتلائه بأهل هذا الزمان، لا تراه إلا على نسق السلف من العلماء،

(١) الشيخ جعفر أبو المكارم. إغاثة الغريق، مخطوط، ص ٢.

من حيث التلبي بما يعده اليوم بعض المغرورين منقصة في العالم، كالوعظ على المنبر، وذكر الحسين عليه السلام والثناء له، ونظم الرثاء عليه، وإشغال مجلسه غالباً بفضائل آل محمد عليهم السلام، وذكر ما جرى عليهم، وهذا كله مما يعده غالب من تلبس بموهوم العلم اليوم منقصة للعالم وهو والله أجلى حلّي، وأحلى حلية، لمن قام بوظائفه، اللهم ارزقنا القيام بهذه الوظيفة الحسينية^(١).

وهكذا شق أبو المكارم قناة أخرى من قنوات العطاء العلمي والثقافي، ومارس دوراً آخر في القيام بوظيفته الدينية، وأصبح أكثر تواصلًا مع الجمهور وتأثيراً في المجتمع، عبر الخطابة والمنبر.

وقد تحدث بعض مترجميه عن هذا البعد من شخصيته فأشادوا بملكته الخطابية، وقدرته البيانية.

فالأديب الشيخ محمد علي التاجر في (منتظم الدرر) بعد أن تحدث عن علمه وفقهه وادبه وأخلاقه وصفه بأنه (كان واعظاً خطيباً مصقاً).

والعلامة الشيخ إبراهيم المبارك في (ماضي البحرين وحاضرها) يصفه أيضاً بأنه (كان له لسان وحزم ونفوذ وهيبة).

هكذا وعبر هذه الوسائل والقنوات، من تدريس وتأليف

(١) السيد مهدي الغريفي. الرق المنشور، مخطوط، ص ٢٠.

وخطابة، يمارس العالم دوره في خدمة الدين والأمة، ويعمل لنشر العلم والمعرفة، وبذلك يؤدي زكاة علمه.

رحم الله الشيخ جعفر أبا المكارم، وجزاه خير الجزاء على عطائه العلمي والثقافي، وأيد الله علماءنا الباقين ووقفهم لمواصلة مسيرة العلم والمعرفة، والقيام بالمسؤوليات الدينية العظيمة وخاصة في هذا العصر وحيث تعصف بالأمة التحديات، وتحقق بها المشاكل والأخطار، فإنه ينبغي إعلان حالة الطوارئ في حياة علماء الدين، بمضاعفة جهودهم، وتكثيف نشاطهم العلمي والثقافي والاجتماعي، حتى تتجاوز الأمة حالة الخطر الداهم.



المحتويات

٥	مقدمة
٧	مدخل
١٣	بذل العلم
١٧	التدريس والتعليم
٢٣	الكتابة والتأليف
٣١	الخطابة
٣٩	المحتويات



عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية

ص.ب ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١



+٩٦٦ ١٣٨٥٥٥٢١٠



+٩٦٦ ١٣٨٥١٢٦٠٠



www.saffar.org



office@saffar.org

